وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغداد - كلية العلوم الإسلامية

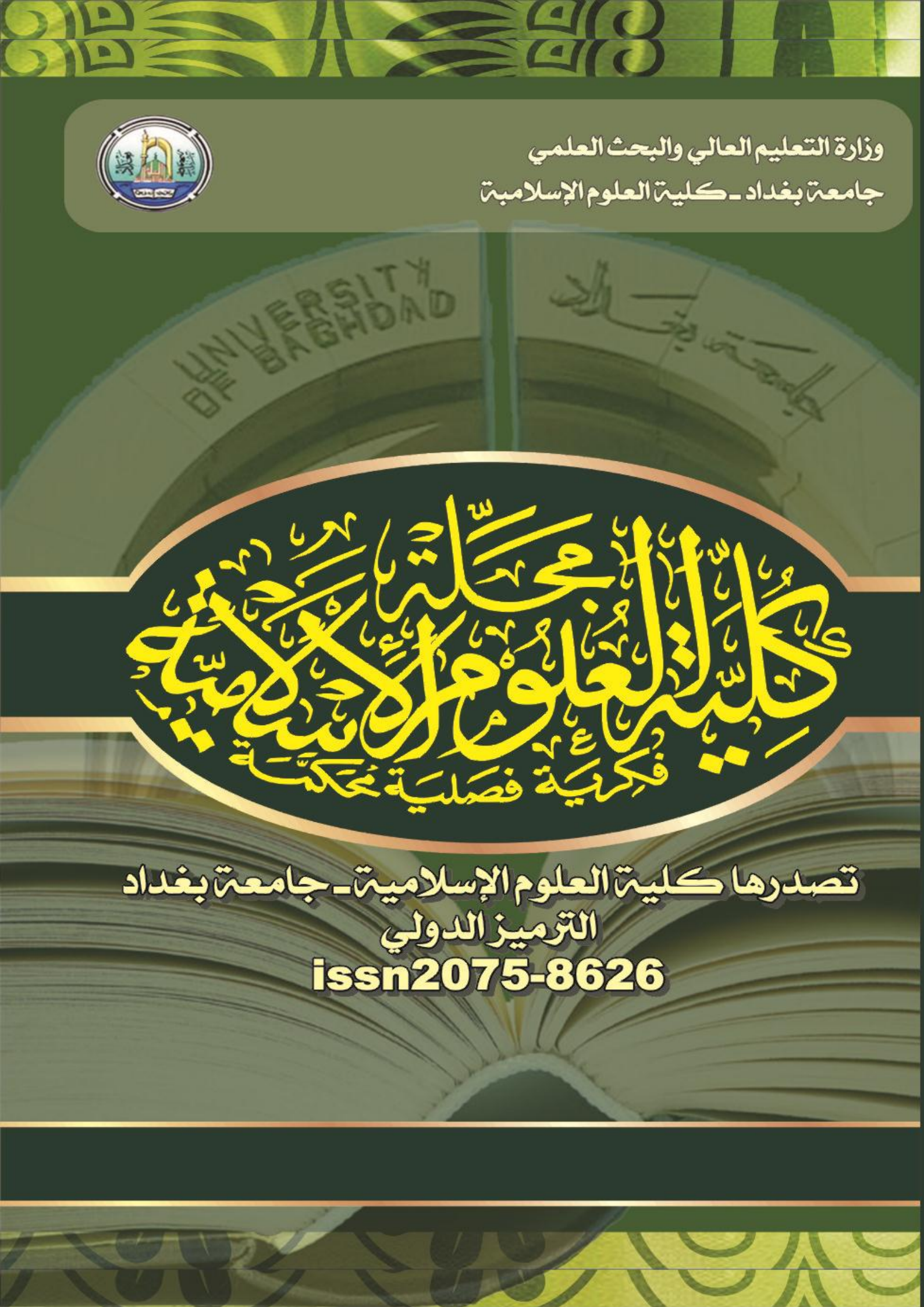

مجلة كلية العلوم الإسلامية

فكرية فصلية محكمة

تصدرها كلية العلوم الإسلامية - جامعة بغداد
الترميز الدولي
issn2075-8626

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغداد . كلية العلوم الإسلامية

مجلة كلية العلوم الإسلامية

علمية . فصلية . محكمة

تصدرها
كلية العلوم الإسلامية
جامعة بغداد

العـــــدد
(٤٥)

﴿ الجـــزء الاول ﴾

٢٠جمادي الآخر ١٤٣٧هـ / ٣٠ اذار ٢٠١٦م

ايميل المجلة : journal@cois.uobagdad.edu.iq

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٦٣٣) لسنة ١٩٩٦م

﴿ فهرس الموضوعات﴾

(الجـــزء الاول)

❁ كلمة العدد ..... ص ﴿١٢-١٣﴾

اسم البحث	اسم الباحث	رقم الصفحة
اشكالية فهم مسألة "ما أغفله عنك شيئاً" عند سيبويه	الاستاذ الدكتور محمد جواد محمد سعيد الطريحي الاستاذة سارة كاظم عبد الرضا	١٤ -٢٦
خصائص الخطاب اللغوي في القرآن الكريم	أ.م. د بلال عبد الستار مشحن	٢٧-٤٨
الدلالة الصوتية للتماثل الصامتي في صيغة (يتفعّل) في القرآن الكريم	أ. م. د. أشواق محمد إسماعيل النجّار	٤٩-١٠٨
أثر التعبير القرآنيّ في الصورة الشعريّة في الشعر المشرقي في القرن الثامن الهجري	أ.م.د . إسراء خليل فياض الجبوري م. م. أحمد عبد الله عذيّب	١٠٩-١٣٨
الدّلالة البيانيّة لـ (إنْ) و (إذا) الشّرطيّتين في سورة المائدة	أ.م.د. نافع سلمان جاسم	١٣٩-١٥٩
السياق وأثرُهُ في تَخَيُّر المفردة القرآنية دراسة تطبيقيةٌ في بعضِ آيات التكرارِ	ا. م. د. محمد فرج توفيق	١٦٠-١٨٩
احكام تغير قيمة النقود واثارها	د. احمد عبد الله اسماعيل الهاشمي	١٩٠-٢١٩
أحاديث العقل والتفكر كما جاءت في السُّنة النبوية وأثرها في السلوك الإنساني	الدكتور محمد صفاء جاسم	٢٢٠-٢٦١
أحكام الصلاة على الكراسي	د .صهيب سليم عمير الآلوسي	٢٦٢-٣١١
أحكام أخذ الأم أجرة الرضاع دراسة فقهية مقارنة	د. قاسم محمد حزم الحمود	٣١٢-٣٤٢

﴿ فهرس الموضوعات﴾

(الجـــزء الاول)

اسم البحث	اسم الباحث	رقم الصفحة
الإمام سعيد بن جبير وجهوده في الناسخ والمنسوخ	أ.د . زياد علي دايح	٣٤٣-٣٦١
قاعدة (حقوق الله -سبحانه وتعالى- مبنية على المسامحة والمساهلة وحقوق الآدميين مبنية على الشح والضيق) وتطبيقاتها في الفقه الجنائي.	الباحث: مايد أحمد عبدالله عبدول	٣٦٢-٣٨٧
تنظيم المجتمع وأثره على الأمن الاجتماعي	أ.م.د. عبد هادي القيسي	٣٨٨-٤٠٢
استدراكات ابن الانباري النحوية على أبي حاتم السجستاني من خلال كتابهِ إيضاح الوقف والابتداء	الباحث: مظر محمود يحيى	٤٠٣-٤٢٥
صلة الرُّتبة المقصديَّة باستعمال الأدلّة الحِكْميَّة دراسة أصوليَّة تحليليَّة	د. نجم الدين قادر كريم الزنكي	٤٢٦-٤٧٧
حديث أم زرع وأثره في السعادة الزوجية	الدكتور محمود دهام نايف العيساوي	٤٧٨-٥١٠
أنوار البيان في الجزء الأول من القرآن	الدكتور طالب خميس الوادي	٥١١-٥٣٦
رسالة للشيخ الجمل خاتمة البخاري للشيخ سليمان الجمل (ت ١٢٠٤ هـ) دراسةً وتحقيقاً	د. طـه حميد حريش الفهداوي د. عبد الجبار عبد الستار روكان	٥٣٧-٥٨٢
رسالة في تفصيل ما قيل في أبوي النبيﷺ لابن كمال باشا(ت٩٤٠هـ) دراسة وتحقيق	د. أحمد كامل سرحان	٥٨٣-٦١٤

أنوار البيان في الجزء الأول من القرآن

الدكتور طالب خميس الوادي

أنوار البيان في الجزء الأول من القرآن

ملخص البحث

إنَّ بحثي الموسوم [أنوار البيان في الجزء الأول من القرآن] جاء يُبيِّن أن الكتاب العزيز وُضِعَ وفق نظام لغويّ دقيق لا يزاد عليه بكلمة أو حرف أو حركة –الضمة والكسرة والفتحة– ،ولا ينقص منه شيء من ذلك إلا بحكمة تقتضيها معاني النص القرآني أو السورة بشكل عام . والقرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهو معصوم ومحفوظ ؛لأنه منزَّل من لدن حكيم حميد سبحانه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الحجر]. والقرآن سالم من أي عوج لفظيّ أو معنويّ ومهيمن على كل الكتب السماوية وقائم في كل زمان ومكان ينطق بالحق ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [الكهف] .

كما استطاع البحث أن يجيب عن أسئلة تشغل فكر قراء القرآن الكريم في مجال اللغة والبيان. وسعينا جاهدين لبيان قسم من مواطن الإعجاز اللغوي في هذا الجزء من القرآن المتمثلة بفنون التعبير القرآني وعلم المعاني كالإظهار أو الإضمار،والحذف أو الإثبات ،والتقديم أو التأخير ،والإيجاز أو الإطناب ،و التكرار ،والتوكيد أو النفي. وجاء أيضًا ردًا على بعض الحاقدين والمتحاملين على الإسلام وأهله مِمَّن يدعي أن القرآن الكريم ليس معصومًا من الخطأ والزلل وبعد إنعام النظر في كتاب الله وجدنا مسائل –في تقديرنا المتواضع–

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين نحمده ،ونستعينه ،ونستهديه ،ونستغفره ،ونتوب إليه، ونؤمن به وعليه نتوكل وحده لا شريك له . وأشهد أن لا إله إلا الله ،وأشهد أن محمدًا رسول الله . وصلى الله على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وإمام المتقين وأفضل البلغاء والمتكلمين والعارفين ،وعلى آله وصحبه ،ومن والاه أجمعين .

إنَّ بحثي هذا الموسوم [أنوار البيان في الجزء الأول من القرآن] هو خطوة متواضعة في فن التعبير القرآني ، والدراسات البلاغية البيانية في القرآن الكريم ؛للكشف عن أسرار سياقات النظم وبيان عجائب وسائل التعبير وبديع أساليب التركيب اللغوي في كتاب الله العزيز من تقديم وتأخير كتقديم المفعول به على الفاعل:﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:١٢٤]. فتقديم (إِبْرَٰهِـۧمَ) على (رَبُّهُ) لمعنى يقتضيه التركيب اللغوي للآية وعموم النص،كما أردنا أن نُبيِّنَ أهمية أساليب فنون التعبير في الكلام من إضمار وإظهار،وحذف ،وإطناب وإيجاز،وسترى ذلك في موضعين من سورة البقرة ،مثل قوله سبحانه:﴿واسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾،وقوله عز وجل:﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)﴾.**

واعلم أنَّه غالبًا ما تكون الزيادة في المبنى التي ترد في كتاب الله تعالى تقابلها زيادة في المعنى ، نحو قوله تعالى :﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف:٥] ،وقد يكون النقص في المبنى أو فيما يلحق بالمبنى من ضمائر في بعض الأحيان يقابله نقص في المعنى يتطلبه سياق التعبير القرآني الذي ورد فيه كحذف ياء المتكلم وإبقاء الكسرة تدل عليها،**مثل قوله تعالى :﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾** [البقرة: ٥٤].ومن مظاهرَ الإعجاز اللغوي التي وقفنا عندها وقفة تأمُّل وتدبُّر أنه لا يمكن استبدالُ كلمةٍ بأخرى ؛فلا يجوز استبدال (ذلك) ب(هذا) في قوله تعالى :﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾[البقرة] ،على الرغم من قول علماء التفسير إنَّ [ذلك] بمعنى [هذا]، ولا تقديم ما أُخِّرَ ،نحو تقديم الخبر على المبتدإِ في قوله عز وجل:﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ۖ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠ ﴾ [البقرة] ، أو توكيد ما نُزِعَ منه التوكيد ،وهو كثير في القرآن ، أو عدم توكيدِ ما أُكِّدَ كتوكيد القول بالنداء مثل قوله سبحانه :﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾[البقرة:٥٤] فلا يمكن لأحد أن ينزع منه قول:{ يَا قَوْمِ } لما يحمله من معان منها التوكيد ؛لأنَّ فيها طلبًا عظيمًا ألا وهو قتل أنفسهم ؛ليكون ذلك ثمن رضا الله تعالى عنهم وتوبته:﴿** فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)﴾.

وكل ذلك تناولناه بالبحث ،والدرس ، والتحليل مع تدبر ،وتأمل لعموم النص الذي ترد فيه الآية عندما يتطلب الأمر ذلك وهذا ما يحصل غالبًا . وقد اخترت الجزء الأوَّل من القرآن الواقع ضمن سورة البقرة لمَّا أنعمت النظر في أساليب

التعبير اللغوي في آيات هذا الجزء من القرآن والتي لها علاقة وثيقة بآي الأجزاء الأخرى من الكتاب الحكيم ؛ لأنَّي وجدت القرآن العظيم يفسر بعضه بعضًا ويكمِّل بعضه بعضًا في البلاغة والبيان على الرغم من عدم وجود النقص والخلل في أيٍّ من مفاصل نصوصه أو أجزاء آيه فلله سبحانه الكمال والتمام وحده ،وما أنزله من كتب ،ومَن أرسلهم مِن رسل، وبعثهم من أنبياء –عليهم السلام جميعًا- فعصمهم بإذنه من كلِّ نقص وزلل ،وكلُّ ما سواهم قد يتسرب إليه الزلل والخطل والنقص ٠فلا بد للدارس، والباحث في بيان القرآن العظيم وأسرار نظمه وعجيب أسلوبه وبديع بلاغته وروعة فصاحته من أن يكون مسلحًا بضبط القرآن وحفظه والإحاطة بعلوم القرآن والتبحر بعلوم العربية وأسرارها كي يستطيع الولوج في خضم هذا البحر العظيم وما حوى في أحشائه من أسرار وعجائب يصعب على العلماء في هذا الاختصاص فهم كنهها فكيف بالذين هم دون ذلك من الناس ؛ لذلك تجد أغلب المسلمين يقرؤون القرآن الكريم فيفهمون منه ما تيسَّر لهم فهمه ؛لأنهم عرب ،أو ممن درسوا العربية ،وأمَّا ما أشكل عليهم فيسألون أهل الذكر عنه ،وأما من تعسر عليه كل ذلك فهو يقرأه طلبًا للبركة والأجر ؛لأنَّ قراءته والنظر في حروفه عبادة وقربة إلى الله تعالى ٠

وإليك جملة من نصوص الكتاب العزيز في الجزء الأول سُئلتُ عن سِرِّ التعبير في بعضها ،واحتجت إلى بعضها الآخر من سور متعددة لما لها علاقة بما درسته في هذا الجزء، ولأبيّن طرفاً مما فيها من أسرار تعبيرية وأنوار بيانية ولمسات فنية لعلَّ فيها نفعاً لدارسي القرآن الكريم ،ولتكون خطوة جادة في بيان شيء من أسرار هذا السِّفْر العظيم كتاب الله الخالد.

وعلى هذا فالإعجاز القرآنيّ متعدِّدُ النواحي، متشعب الاتجاهات، ولا يزال أصحاب الاختصاصات العلمية في كل مناحي الحياة يكتشفون من مظاهر إعجازه الشيء الكثير، فلا أكون مبالغًا أن أقول إذن: إن الإعجاز القرآني لا يمكن لشخص معين أو ثلة من المسلمين في زمن معين أن يقوموا بأعباء هذه المسؤولية العظيمة، وأنَّى لهم ذلك، فالأمر أكبر من ذلك بكثير، بل إنِّي أرى أنَّ هذه المسؤولية العظيمة مسؤولية علماء الأمة جميعا في الحاضر والمستقبل .

وتضمن البحث مقدمة وسبعة مباحث :

المبحث الأول : [(ذَٰلِكَ) يحمل معنيين:القرب والبعد]

المبحث الثاني : [الدلالة الزمنية لاسم الفاعل والفعل]

المبحث الثالث :[التأخير والتقديم في الجملة الاسمية]

المبحث الرابع : [عودة الضمير تدلُّ على العناية والاهتمام]

المبحث الخامس : [إحكام ضبط عودة الضمير المتأخِّر على الاسم المتقدم]

المبحث السادس :[التوكيد والحذف لا يكونان إلَّا لمعنى يقتضيه النص القرآني]

المبحث السابع : [تقديم المفعول به على الفاعل] .

لقد كلفني هذا البحث عمل ستة أشهر أو يزيد متواصلة بأيَّامها ولياليها، والله أعلم كم بذلت فيه من الجهد والمثابرة والعمل الدؤوب الممزوج بالسهر والمشقة التي ولَّدها التفكير والتدبر والتأمل في المسائل وتقليبها وإنعام النظر بدقائقها، ولا أدعي الكمال في هذا العمل؛ لأنَّ الكمال لله سبحانه وحده فإن أصبت وهذا ما أرجوه فهو بفضل الله تعالى ومَنِّه وكرمه، وإن قصرت في جانب معين من هذا العمل فهو مِنِّي والله تعالى المستعان على فعل الخير وإنجازه ،

وحسبي أني عملتُ ما يرضي الضمير. والحمد لله سبحانه أولًا وآخِرًا وصَلّى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين.

المبحث الأول : [(ذَلِكَ) يحمل معنيين:القرب والبعد]

قال الله تعالى :﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ﴾[البقرة]

يستعمل اسم الإشارة (ذلك) للبعيد في حين نجد أَنَّ القرآن الكريم بين أيدينا نقرأه ونحفظه في صدورنا ونتدارسه يوميًّا فَلِمَ لَمْ يستعمل القرآن اسم الإشارة (هذا) الذي يستعمل للقريب؟

فأجاب المفسرون –القدامى والمحدثون- بإجابات مختلفة كلٌّ بحسب علمه فذكر الفراء أنَّه {يصلح فيه ذلِكَ من جهتين، وتصلح فيه «هذا» من جهة فأما أحد الوجهين من «ذلِكَ» فعلى معنى: هذه الحروف يا أحمد ، ذلك الكتاب الذي وعدتك أن أُوحِيه إليك. والآخر أن يكون «ذلِكَ» على معنى يصلح فِيهِ «هَذَا» لأن قوله «هَذَا» و «ذلِكَ» يصلحان في كل كلام إذا ذكر ثم أتبعته بأحدهما بالأخبار عنه. ألا ترى أنك تقول: قد قدم فلان فيقول السامع: قد بلغنا ذلك، وقد بلغنا هذا الخبر، فصلحت فيه «هذا» لأنه قد قرب من جوابه، فصار كالحاضر الذي تشير إليه، وصلحت فيه «ذلِكَ» لانقضائه، والمنقضي كالغائب. ولو كان شيئًا قائما يرى لم يجز مكان «ذلِكَ» «هذا» ،ولا مكان «هذا» «ذلِكَ» وقد قال الله جل وعز: «وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ» إلى قوله: «وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ» ثم قال: «هذا ذِكْرٌ» [٢]. وقال جل وعز في موضع آخر: «وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ» ثم قال:«هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ» [٣] . وقال جل ذكره:«وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ» ثم قال: «ذلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ»[٤] . ولو قيل في مثله من الكلام في موضع «ذلِكَ» : هذا» أو فى موضع «هذا»: «ذلِكَ» لكان صوابا. وفي قراءة عبد الله بن مسعود «هَذَا فَذُوقُوهُ» وفي قراءتنا «ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ» [٥]. فأما ما لا يجوز فِيهِ «هذا» في موضع «ذلِكَ» ولا «ذلِكَ» في موضع «هذا» فلو رأيت رجلين تنكر أحدهما لقلت للذي تعرف: مَن هذا الذي معك؟ ولا يجوز هاهنا: مَن ذلك؟ لأنك تراه بعينه}(٦).وذكر ابن أبي حاتم {عَنْ عِكْرِمَةَ: ذَلِكَ الْكِتَابُ قَالَ: هَذَا الْكِتَابُ. قَالَ: وَهَكَذَا فَسَّرَهُ سَعِيدُ ابن جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيُّ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ}(٧). وفسر (ذلك) النسفي: {أي ذلك الكتاب الذي وعد به على لسان موسى وعيسى عليهما السلام أو ذلك إشارة إلى الم وإنما ذكّر اسم الإشارة والمشار إليه مؤنث وهو السورة لأن الكتاب إن كان خبره كان ذلك في معناه ومسماه فجاز إجراء حكمه عليه بالتذكير والتأنيث وإن كان صفته فالإشارة به إلى الكتاب صريحاً لأن اسم الإشارة مشار به إلى الجنس الواقع صفة له تقول هند ذلك الإنسان أو ذلك الشخص فعل كذا ووجه تأليف ذلك الكتاب مع الم إن جعلت الم اسماً للسورة أن يكون الم مبتدأ وذلك مبتدأ ثانيا والكتاب خبره والجملة خبر للمبتدأ الأول ومعناه أن ذلك هو الكتاب الكامل كأن ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص كما تقول هو الرجل أي الكامل في الرجولية الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال وأن يكون الم خبر مبتدأ محذوف أي هذه الم جملة وذلك الكتاب جملة أخرى وإن جعلت الم بمنزلة الصوت كان ذلك مبتدأ خبره الكتاب أي ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل (لاَ رَيْبَ) لا شك}(٨).وكان للشيخ العلامة أبي الثناء محمود الآلوسي كلام لطيف في هذه المسألة إذ قال:{وأغرب ما رأيناه في توجيه الإشارة أنها إلى الصراط المستقيم في الفاتحة كأنهم لما سألوا الهداية لذلك قيل لهم ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو الكتاب وهذا إن قبلته يتبين به وجه ارتباط سورة

البقرة بسورة الحمد على أتم وجه وتكون الإشارة إلى ما سبق ذكره والذي تنفتح له الآذان أنه إشارة إلى القرآن. ووجه البعد ما ذكره صاحب المفتاح ونور القرب يلوح عليه، والمعتبر في أسماء الإشارة هو الإشارة الحسية التي لا يتصور تعلقها إلا بمحسوس مشاهد فإن أشير بها إلى ما يستحيل إحساسه نحو ذٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ [غافر: ٦٢، ٦٤، الإنعام: ١٠٢، يونس: ٣، فاطر: ١٣، الزمر: ٦] أو إلى محسوس غير مشاهد نحو تِلْكَ الْجَنَّةُ [مريم: ٦٣] فلتصييره كالمشاهد وتنزيل الإشارة العقلية منزلة الحسية كما في الرضي فالإشارة هنا لا تخلو عن لطف، وقول بعضهم إن اسم الإشارة إذا كان معه صفة له لم يلزم أن يكون محسوسا٠٠٠٠والمعنى ذلك هو الكتاب الكامل الحقيق بأن يخص به اسم الكتاب لغاية تفوقه على بقية الأفراد في حيازة كمالات الجنس حتى كأن ما عداه من الكتب السماوية خارج منه بالنسبة إليه}(٩). بل قال دروزة محمد عزت:{ بعضهم يقف عند استعمال ذلِكَ ويقول: إن هذا للبعيد ولا يفيد أن القصد هو القرآن، وهذا تمحل لا مبرر له، فصيغة الآيات ومحتواها فيها الدلالة على أن المقصود هو القرآن الكتاب الذي يتلى على الناس}(١٠). ومماتقدم تبيَّنَ لنا أنَّ المفسرين ذكروا لنا تأويلات عديدة لكلمة (ذلك) وكأنها تبدو للقارئ مختلفة بل وجدتها متفقة يكمِّل بعضها الآخر. وهذا يدل على شديد عناية علماء الأمة وشيوخها بهذه المسألة التي لفتت نظري إليها. وإنِّي أرى أنَّ اسم الإشارة (ذلك) يصحُّ فيه معنيان : أحدهما:أنَّه يفيد معنى القرب أي: بمعنى (هذا) وهذا ما ينسجم مع عصر النبوة والرسالة ،والخلافة الراشدة إلى نهاية القرن الثالث الهجري؛ لقوله صلَّى الله تعالى عليه وآله وسلم:{ خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثْتُ فِيهِمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَنْشَأُ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلا يُوفُونَ، وَيَخُونُونَ وَلا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَفْشُو فِيهِم السِّمَنُ .} هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ ، (١١)؛لأنَّهم كانوا يعملون بكتاب الله ويطبقون ما جاء فيه ، ويحتكمون إليه في كل صغيرة وكبيرة ويتخلقون بأخلاقه ٠فسُئِلت السيدة عائشةُ –رضي الله عنها–عن أخلاق رسول الله (صلى الله تعالى عليه وآله وسلم) فقالت :{كان خلُقُه القرآن} هَذَا حَدِيثٌ صَحِيح على شرط الشيخين (١٢).وهذا نهج أهل البيت و الصحابة والتابعين –رضي الله تعالى عنهم جميعًا وأرضاهم– في إدارة شؤون الدولة الإسلامية دينيًّا و سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وفي كل مناحي الحياة ؛لذلك عندما يخاطب اللهُ سبحانه الرعيلَ الأول من أبناء هذه الأمة بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾بمعنى هذا الكتاب لاشك فيه أنَّه من عند الله تعالى ينطق بالحق المبين،ولا يأتيه الباطل من بين يديه ،ولا من خلفه ،فيه صلاح البلاد ،والعباد في كل زمان ومكان . وأمَّا المعنى الآخر:هو معنى البعد الذي هو المعنى الأصلي لكلمة (ذلك) والذي يصح أن تخاطب به أبناء الأمة الإسلامية منذ ابتعدنا عن جوهر القرآن ومضامينه وأهدافه وغاياته السامية والتزمنا بالشكليات منه كالقراءة التي لا تمس شغاف القلب والحفظ الذي لا يغيِّر الجوهر ولا يؤثِّر في الفكر والأخلاق والطباع وانعكاس ذلك على تعامل المسلمين فيما بينهم. .

وهذا الضعف والوهن الذي أصاب الأمة من تجزئة وفرقة وتناحر ما كان ليحصل لولا أنَّنا ابتعدنا عن كتاب الله عزوجل، و{عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا» ، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ(الغثاء:مايحمله السيل من زبد ووسخ) السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ» ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»}حديث صحيح (١٣). **وما حب الدنيا، وكراهية الموت إلَّا لابتعادنا عن كتاب الله سبحانه، وعدم الاحتكام إليه، والتنصل من الالتزام بأوامره،**

ونواهيه، وإلَّا نحن أين من قوله تعالى:﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران]، ومن قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾ [البقرة]، و﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام]، و أين نحن –المسلمين– من قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأنعام]، و﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء].

فأمة عاشت أكثر حياتها ابتعادًا عن تطبيق كتاب ربِّها والالتزام بشرع الله سبحانه منذ أحد عشر قرنًا أو يزيد ألا تستحق أن تخاطب بهذا الأسلوب ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾أي:الكتاب البعيد عنكم ؛لأنَّكم تركتم العمل به والاحتكام إليه .

أَمَا آنَ لهذه الأمة أن ترجع إلى كتاب ربِّها وتحكم بما أنزل الله تعالى وبسُنَّة نبيِّه (عليه الصلاة والسلام) كي يستجيبَ اللهُ سبحانه دعاءها ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾الذي تدعو به الأمةُ في اليوم والليلة أكثر من سبع عشرة مرة.

المبحث الثاني : [الدلالة الزمنية لاسم الفاعل والفعل]

قال الله تعالى:﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [البقرة]. في الآيتين أعلاه وردت جملتان اسميَّتان :أحدهما :جملة اسمية خبرها اسم فاعل ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ والأخرى: جملة اسمية خبرها فعل مضارع﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾لِمَ لَمْ يقل (اللَّهُ مُستهزِئ بهم) إنَّ المنافقين اقتصر إيمانهم الشكلي– الإيمان باللسان فقط– على الاستهزاء بالدين وأهله {والمعنى: إننا نظهر للمؤمنين الموافقة على دينهم استخفافا بهم وسخرية منهم ، لا أن ذلك صادر منا عن صدق وإخلاص.}(١٤)؛ لذلك جيء بالأداة (إنَّما) التي تفيد القصر في بداية الجملة الاسمية و قد أكدوا كلامهم ليصدقَهم زعماؤُهم الشياطين بثباتهم على كفرهم . في الحقيقة أنَّ الاستهزاء والسخرية بالآخرين صفة ثابتة في شخصية المنافق على الدوام؛ لأنَّهم لا يمتلكون دليلًا ولا حجة على ما يزعمون ؛لهذا تجدهم قد وصفوا أنفسهم بصيغة اسم الفاعل (مُسْتَهْزِءُونَ) الذي يدلُّ على الثبات والدوام والملازمة والاستمرارية بينما وصف الله عزَّ وجل ذاته العلية بفعل المستقبل (يَسْتَهْزِئُ) ؛ لأنَّه يدلُّ على الحدوث والتجدد والتغيير أي

لا يدل على الدوام والثبات،وهذا الفعل جاء ردًّا على كفرهم بالله تعالى ونفاقهم واستهزائهم بالمؤمنين ؛لأنَّ (العقوبة من جنس العمل) ؛لقوله تعالى﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [البقرة]. وأردنا أن نبيِّن من خلال ما تقدم أنَّ الاستهزاء ليس من صفات الله سبحانه الثابتة أو الدائمة كصفة الرحمن والرحيم والكريم والسميع والبصير والعليم والعالم والعلَّام والمقيت و القهار والجبار والمنتقم بل هي مشاكلة (١٥) ووقتُها معلوم محدود، فقد أخزاهم الله عز وجل في مواطن كثيرة كمعركة بدر و الخندق وفتح مكة وغيرها،وكلما عادوا للاستهزاء بالمؤمنين سيستهزئ بهم الله عزَّ وجَلَّ بالعذاب والخزي والهوان الذي سينزل بهم عاجلًا أم آجلًا؛ لقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾[الحج] ،وهذا ما أكده الحديث القدسيّ عن رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ قال: {إِنَّ اللَّهَ قَالَ:مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ }(١٦) وهذا هو انتصار الله تعالى للمؤمنين ودفاعُه عنهم فليحذر الكفار والمنافقون غضب الله تعالى عليهم . لكن تجد بعض العلماء حمل {استهزاء الله بهم على الحقيقة وإن لم يكن من أسمائه المستهزئ، لأن معناه يحتقرهم على وجه شأنه أن يتعجب منه، وهذا المعنى غير مستحيل على الله، فيصح إسناده إليه– تعالى– على وجه الحقيقة. يرى جمهور العلماء أن الاستهزاء لا ينفك عن التلبيس كأن يظهر المستهزئ استحسان الشيء وهو في الواقع غير حسن، أو يقر المستهزأ به على أمر غير صواب، وهذا المعنى لا يليق بجلال الله، فيجب حمل الاستهزاء المسند إليه تعالى على معنى يليق بجلاله، فيحمل على ما يلزم على الاستهزاء من الانتقام والعقوبة والجزاء المقابل لاستهزائهم، وسمى ذلك استهزاء على سبيل المشاكلة» كما في قوله تعالى: وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها(١٧).وهذا دليل على غيرة الله على عباده المؤمنين، وانتقامه من كل من يستهزئ بهم أو يؤذيهم. وعبر بالمضارع في قوله يَسْتَهْزِئُ للإيذان بأن احتقاره لهم، أو مجازاتهم على استهزائهم يتجدد ويقع المرة بعد الأخرى:ثم بين– سبحانه– لونا آخر من ألوان غضبه عليهم فقال ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ } ١٨) . لكن الله سبحانه جعل هذا الاستهزاء مطلقًا ولم يبيِّن نوعه إمعانًا منه تعالى في إذلالهم وإهانتهم و{لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا شَيْئًا مِنِ اسْتِهْزَائِهِ بِهِمْ، وَذَكَرَ بَعْضَهُ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ فِي قَوْلِهِ:﴿ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ }(١٩) .واعلم أن كل مستهزئ منافق كذاب مخلِف للعهد غادر خوَّان أثيم محرمة عليه الجنة ، ومصيرهم في جهنم ،وبئس المهاد ؛لقوله تعالى :﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ۖ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾[النساء].

وجاء في التفسير أن المستهزئين يُستهزَأ بهم يوم القيامة فينادون؛ ليدخلوا الجنة ثم يطردون منها في كل مرة حتى ييأسوا كما في قوله تعالى: ﴿ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ [الحديد: ١٣] أي: تقول الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ ارجعوا{ مِنْ حَيْثُ جِئْتُمْ. هَذَا مِنَ الِاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ كَمَا اسْتَهْزَءُوا بِالْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا حِينَ قَالُوا: آمَنَّا، وَلَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٥]} (٢٠). ومن كل ما تقدم نستخلص أنَّ الله سبحانه يصف ذاته العليَّة بالصفات الحميدة والأسماء الحسنى التي تليق بجلاله وعظمته وتصاغ على وزن صيغة اسم الفاعل

والصفة المشبهة باسم الفاعل وصيغة المبالغة ؛لأنّها أسماء تدل على الملازمة والدوام والثبوت فإن كانت الصفة لاتليق به سبحانه وبجلاله كالاستهزاء والنسيان كقوله تعالى :﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة]، والمجازاة بالسيِّئة كقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۚ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سبأ]، وكمكر الله الجبار المنتقم بالكفار، وأعداء الدين، نحو قوله تعالى :﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال]؛ فيعدل عن الاسم إلى الفعل ؛ لأنَّ وقته محدود ويدلُّ على الحدوث والتجدد والتغيير على سبيل المشاكلة فتكون عقوبة المعاصي والآثام والذنوب والكبائر من جنس العمل.

وهذه الأفعال :[يمكر،ويستهزئ، ونسي،... إلخ]، والمصدر [صُنْع] أضيفت إلى الله تعالى لا يجوز أن نشتق منها صفة يوصف بها سبحانه؛ لأنه لا يدعى بها الربُّ جلَّ وعلا فلا ينبغي لأحد أن يقول: يا مستهزئ، أو يا ماكر، أو يا صانع ومن ظنَّ هذا فهو واهم، وخاطئ و{هذا غلط؛ لأن باب الأفعال كما ذكرنا أوسع من باب الصفات، وباب الصفات أضيق؛ لأن المكر منقسم (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) جاء هنا إضافة (يَمْكُرُ) إلى الله (يَمْكُرُ اللَّهُ) لكن المكر صفة منقسمة إلى: المكر الذي هو بحق، وهو ما دلّ على كمال وقهر وجبروت وهو المكر بمن مكر به سبحانه، أو مكر بأوليائه، أو مكر بدينه، هذا.... حق. وإلى مكر مذموم وهو ما كان على غير وجه الحق}(٢١).

المبحث الثالث :[التأخير والتقديم في الجملة الاسمية]

قال الله تعالى:﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة].

جاءت كلمة (مَرَضٌ) نكرة غير معرفة وتعرب مبتدأ مؤخرًا وسبب التأخير عند النحويين؛لأنَّه نكرة ،وقُدِّم الخبر عليه (في قلوبهم) وهو شبه جملة . وهذا التنكير والتأخير لكلمة (مَرَضٌ) جاءا لأمر يتعلق بالمعنى . أمَّا التنكير فإنَّ هذا المرض أخطر الأمراض وأشدها فتكًا بجسد الإنسان ينهش قلبَ المريض ،فيفسد سائر الجسد. و{ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يعني شكاً ونفاقاً وظلمة وضعفاً، لأن المريض فيه فترة ووهن، والشاك أيضاً في أمره فترة وضعف. فعبَّر بالمرض عن الشك، لأن المنافقين فيهم ضعف ووهن، ألا ترى إلى قوله تعالى: يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ [المنافقون: ٤] .ويقال: إن المريض تعرض للهلاك، فسمي النفاق مرضاً، لأن النفاق قد يهلك صاحبه، لأن لخلق على مراتب ثلاث، ميت في الأحوال كلها كالكافر، وحي في الأحوال كلها كالمؤمن لقوله تعالى: أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ [الأنعام: ١٢٢] ، ومريض كالمنافق.}(٢٢) . ومرض النفاق خفيّ مجهول يخفى على كثير من الناس ؛ لأنَّك تجد﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة]،بل حتى على المريض نفسه –المنافق– بدليل أنه يدَّعي أنه مصلح غير فاسد ولا سفيه وما عَلِمَ أنه فاسد سفيه مضل ؛لقوله تعالى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا

﴿ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾ [البقرة]. فالتنكير ناسب كلمة (مرض) من جهتين:من جهة الإطلاق والعموم ،ومن جهة الخفاء والجهل به. وأمَّا التأخير فأخَّر المبتدأ و قدَّم الخبر [في قلوبهم]؛ لأن الذي سيصيبه المرض أهم وأعظم من المرض أَلا وهو القلب الذي هو وعاء للعقل والإيمان يصلح بصلاحه الجسد ويفسد بفساده ؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ :{ أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».} هَذَا حَدِيثٌ مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِهِ(٢٣).

فمسألة التقديم والتأخير ،والتعريف والتنكير ليست مسائل نحوية فحسب بل لها علاقة وطيدة بالعلم البياني والبلاغي كما اتضح ذلك فيما تقدم –والله تعالى أعلم.

المبحث الرابع : [عودة الضمير تدلُّ على العناية والاهتمام]

قال الله سبحانه:﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾[البقرة]،

وقال عز وجل:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾[البقرة].

إنَّ جملة [وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ] تكررت في الآيتين أعلاه وفيها يأمرنا الله تعالى بالصبر والصلاة معًا وقدَّم الصبر على الصلاة ؛لأن المسلم يستعين بالصبر على طاعة الله سبحانه في أداء العبادات التي فرضها ربُّه تعالى عليه مِن صلاة وصيام وحجٍّ وزكاة وجهاد –جهاد النفس و العدوّ– ودعوة إلى الله تعالى .

والإنسان غير الصبور قدرته ضعيفه على أداء الأمانة التي تكفَّل القيام بأعبائها عندما عرضها الله سبحانه عليه﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾[الأحزاب] ذكر المفسرون أنَّ الأمانة هي الفرائض والطاعات(٢٤) ،و{عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– « خَمْسٌ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ مَعَ إِيمَانٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ مَنْ حَافَظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ عَلَى وُضُوئِهِنَّ وَرُكُوعِهِنَّ وَسُجُودِهِنَّ وَمَوَاقِيتِهِنَّ وَصَامَ رَمَضَانَ وَحَجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَأَعْطَى الزَّكَاةَ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ وَأَدَّى الأَمَانَةَ ». قَالُوا يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ وَمَا أَدَاءُ الأَمَانَةِ قَالَ الْغُسْلُ مِنَ الْجَنَابَةِ.} وهذا حديث جيد حسن (٢٥) بل العبادة–التي تشمل كل الفرائض والطاعات والأوامر والنواهي– أسمى هدف من وراء خلق الإنس والجنّ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ ،وما على الإنسان الكيِّس الفطن العاقل إلا أن يروِّض نفسه بالصبر على طاعة الله تعالى وعبادته ليحققَ الهدف العظيم مِن خلقه، فلذلك كلِّه قُدِّمَ الصبرُ على الصلاة ،أي : أنَّ التقديم كان لغرض بياني يحتاج إليه معنى النص القرآني. ٩٨والمتمعن في قوله تعالى : ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾[البقرة]فإنَّ الله سبحانه خصَّ الصلاة بالذكر دون الصبر بقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ فالهاء تعود على الصلاة بالرغم من أهمية الصبر كما بيَّنا سابقًا ولعل سائلًا يسأل لِمَ ذلك ؟

الجواب : لأنَّ الصلاة عمود الدين فمن تركها قاصدًا جحودها فقد كفر وهو خارج من مِلَّة الإسلام.والذي صبرُه قليل أو لا يمتلك الصبر فإنَّ ذلك لا يخرجه من الملّة وهو مسلم. وزِد على ذلك أَنَّ الصبر جزء من الصلاة والكلُّ أَولى بالعناية والاهتمام من الجزء { اخْتَلَفَ الْمُتَأَوِّلُونَ فِي عَوْدِ الضَّمِيرِ مِنْ قَوْلِهِ:" وَإِنَّها"، فَقِيلَ: عَلَى الصَّلَاةِ وَحْدَهَا خَاصَّةً لِأَنَّهَا تَكْبُرُ عَلَى النُّفُوسِ مَا لَا يَكْبُرُ الصَّوْمُ وَالصَّبْرُ هُنَا: لصَّوْمُ فَالصَّلَاةُ فِيهَا سِجْنُ النُّفُوسِ وَالصَّوْمُ إِنَّمَا فِي منْع الشَّهْوَةِ فَلَيْسَ مَنْ مَنَعَ شَهْوَةً وَاحِدَةً أَوْ شَهْوَتَيْنِ كَمَنْ مَنَعَ جَمِيعَ الشَّهَوَاتِ. فَالصَّائِمُ إِنَّمَا مَنَعَ شَهْوَةَ النِّسَاءِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ثُمَّ يَنْبَسِطُ فِي سَائِرِ الشَّهَوَاتِ مِنَ الْكَلَامِ وَالْمَشْيِ وَالنَّظَرِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مُلَاقَاةِ الْخَلْقِ فَيَتَسَلَّى بِتِلْكَ الْأَشْيَاءِ عَمَّا مُنِعَ. وَالْمُصَلِّي يَمْتَنِعُ مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ فَجَوَارِحُهُ كُلُّهَا مُقَيَّدَةٌ بِالصَّلَاةِ عَنْ جَمِيعِ الشَّهَوَاتِ. وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَتِ الصَّلَاةُ أَصْعَبَ عَلَى النَّفْسِ وَمُكَابَدَتُهَا أَشَدَّ فَلِذَلِكَ قَالَ" وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ".}(٢٦) .

و مثله ما قال به الشاعر حسّان بن ثابت(٢٧) :

إنّ شرخ الشباب والشعر الأسود ... ما لم يعاص كان جنونا

أفرد الفعل [يعاصِ] فكان الفاعل [الشباب] ولم يقل يعاصيا ؛لأن الشعر الأسود مظهر من مظاهر الشباب ؛لذلك أفرد الفعل ولم يثنّه .

وثَمَّ أمر آخر أَنَّ سياق النص القرآني الذي وردت فيه الآية يوجب الاهتمام وتركيز العناية على الصلاة دون الصبر كقوله تعالى:﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾البقرة

إنَّ هذه الآيات تذكرهم بنعم الله تعالى التي منَّ بها عليهم كإغراق آل فرعون في اليم وإنجاء بني إسرائيل من فرعون وجنده وأورثهم ملكه. ومِن نعمه على بني إسرائيل أنَّه {وَأَوْفُوا بِعَهْدِي بالإيمان والطاعة. أُوفِ بِعَهْدِكُمْ بحسن الإثابة والعهد يضاف إلى المعاهِد والمعاهَد، ولعل الأول مضاف إلى الفاعل والثاني إلى المفعول، فإنه تعالى عهد إليهم بالإيمان والعمل الصالح بنصب الدلائل وإنزال الكتب، ووعد لهم بالثواب على حسناتهم، وللوفاء بهما عرض عريض فأول مراتب الوفاء منا هو الإتيان بكلمتي الشهادة، ومن الله تعالى حقن الدم والمال، وآخرها منا الاستغراق في بحر التوحيد بحيث يغفل عن نفسه فضلاً عن غيره، ومن الله تعالى الفوز باللقاء الدائم. وما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أوفوا بعهدي في اتباع محمد صلّى الله عليه وسلّم، أوف بعهدكم في رفع الآصار والإغلال. وعن غيره أوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر أوف بالمغفرة والثواب. أو أوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم، أوف بالكرامة والنعيم المقيم، فبالنظر إلى الوسائط.}(٢٨).

وهذه النعم توجب على العبد الشكر والشكر لا يؤدَّى باللسان فحسب بل بالعمل وخير العمل الصلاة. وفي النص القرآنيّ أمر بالصلاة والزكاة والركوع مع الراكعين أي: المحافظة على أداء الصلاة في أوقاتها في المساجد مع محمد(صلى الله تعالى عليه وآله وسلم) وأصحابه والمؤمنين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وفي هذا النص طالب سبحانه بني إسرائيل بالإيمان بمحمد(صلى الله تعالى عليه وآله وسلم) ،والصلاة أهم ركن من أركان دين محمد (صلى الله تعالى عليه وآله وسلم) بل هي العمود الفقري لدين الإسلام ،بل هي العهد الذي بين النبيِّ والناس أجمعين لقوله(صلى الله تعالى عليه وآله وسلم): {الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ }حديث صحيح (٢٩) .

و{عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : لاَ حَظَّ فِي الإِسْلاَمِ لِمَنْ تَرَكَ الصَّلاَةَ. وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَنْ لَمْ يُصَلِّ فَهُوَ كَافِرٌ. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ مَنْ لَمْ يُصَلِّ فَلاَ دِينَ لَهُ.}(٣٠).

وترى المؤمن يفزع إلى الصلاة في كل أمر وَكَيْفَ لَا يَفْزَعُ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى الصَّلَاةِ وهي عَمُودُ الدِّينِ (٣١). يوجد توافق تام بين معاني النص والتوكيد على الصلاة دون الصبر في الآية ،وهذا يدل على دقة التعبير القرآني في اختيار الألفاظ التي تناسب المعاني .

في حين نجد التوكيد يَنصَبُّ على الصبر دون الصلاة في آية أخرى من السورة نفسها﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) ﴾ خصَّ الله سبحانه

الصبر بالذكر دون الصلاة بقوله:﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بما يناسب عموم النص القرآني الذي جاءت فيه الآية ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾البقرة

.فهذه الآيات تتحدث عن الشهادة والموت والقتال ونزول البلاء والجوع والفقر، ثم يبشر الله سبحانه الصابرين منهم بالصلاة عليهم من ربِّهم والرحمة والهداية والرضوان ؛لذلك أكد سبحانه على الصبر وخصه بالذكر دون الصلاة لما للصبر من أهمية عظيمة في مثل هذه الظروف ،والأحداث ،والمواقف الكبيرة ذات الخطب الجلل التي تجد فيها أنَّ اليأس والحزن قد يدبُّ إلى نفس الإنسان ؛لذلك حثَّ سبحانه المؤمنين على الصبر وأنَّه تعالى مع الصابرين . فعودة الضمير على الصبر دون الصلاة دليل العناية والاهتمام بالصبر الذي تدور أحداث النص حوله ؛ لذلك أولي الجزء –الصبر– عناية أكثر من الكل –الصلاة .

المبحث الخامس : [إحكام ضبط عودة الضمير المتأخِّر على الاسم المتقدم]

قال الله تعالى:﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥) ﴾[البقرة].

إنَّ المتمعن في قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ فجعل الله سبحانه الأنهار تجري من تحت الجنات في قوله { مِنْ تَحْتِهَا }فالضمير (الهاء) يعود على (الجنات) ومثلها وردت في خمس وثلاثين آية من القرآن الكريم ، في حين نجد الضمير (الهاء) يعود على أصحاب الجنة في قوله تعالى :﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ

وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[الكهف]. ففي قوله :{تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ}تجد أنَّ الأنهارَ تجري من تحت أصحاب الجنة ومثلها وردت في أربعة مواضع من كتاب الله تعالى وهذه الآية واحد من هذه المواضع(٣٢) .

لكن جاء الضمير(الهاء)– كناية عن الجنة – متصلًا بالظرف غير مسبوق بحرف الجر (من) مرة واحدة قي القرآن الكريم :﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾[التوبة]

لعلَّ سائلًا يسأل ما سبب ذلك ؟

إنَّ في الآيات التي جاء الضمير (هاء) يعود على الجنَّة ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ كانت جملة{ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} صفة للجنة ؛لذلك أُضيف الظرف (تحت) إلى الضمير (هاء) الذي هو كناية عن (الجنة)،ومثلها في قوله تعالى:

١-﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾[البقرة]

٢-﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾[آل عمران]

٣-﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾[آل عمران]

٤-﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾[آل عمران].

٥-﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾[آل عمران]

٦-﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾[النساء]

٧-﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[المائدة]

٨-﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾[التوبة]

٩-﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الرعد] . وهنا وقعت جملة{تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} صفة لموصوف وتقدير الكلام على رأي الزجاج :{ مثل الجنة جنة تجري من تحتها

الأنهار على حذف الموصوف تمثيلا لما غاب عنا بما نشاهد} (٣٣) لكنَّ سيبويه يرى أنَّها حال {وجملة تجري من تحتها الأنهار تفسير للمحذوف على رأي سيبويه فهي نصب على الحال وكذلك جملة أكلها دائم}(٣٤) .

١٠-﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[إبراهيم]

١١-﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[النحل] وأيضًا جاءت جملة {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} حال للجنات (٣٥) .

كلُّ الآيات الأخرى – المتبقية من الآيات الخمس والثلاثين – كانت واقعة صفة للجنَّة، لكنَّك تجد أنَّ الآيات التي جاء الضمير(هاء) يعود على أصحاب الجنَّة تكون جملة {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ} واقعة خبرًا ثانيًا عن المبتدإ (أُولَئِكَ) الذي يعود على أصحاب الجنة (٣٦) كما في قوله تعالى:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾–الكهف– فأصبحت جملة {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ}وصفًا لأصحاب الجنة ؛لذلك عاد الضمير (هاء) عليهم لا على الجنة. وكذلك الحال مع قوله تعالى :﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأعراف]، فوقعت جملة {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ} حال من الضمير المتصل في صُدُورِهِمْ الذي يعود على أصحاب الجنة والعامل فيها قد يكون الفعل المتقدم (نزعنا) أو معنى الإضافة، وهذا ما قال به النَّسفي والسمين الحلبي ومحيي الدين درويش والدعاس (٣٧) .وأيضًا في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ ﴾[يونس] وهنا جاء الضمير(هاء)المتصل بالظرف (مِنْ تَحْتِهِمُ)عائد على (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) وهم أصحاب (جَنَّاتِ النَّعِيمِ) ؛لأنَّ جملة [تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ]{ خبر ثان لإنَّ أو حال من مفعول يهديهم}(٣٨) فبذلك بان سبب اتصال الضمير بالظرف (مِنْ تَحْتِهِمُ) العائد على أصحاب الجنة وليس على الجَنَّة . لكنَّ الأنهار التي تجري من تحت الظَّلَمَة والكفرة في الدنيا لم ترد إلَّا في موضع واحد من القرآن الكريم ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ(٦) ﴾ [الأنعام] .

وجملة «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ» في محل نصب حال إن كانت جعلنا متعدية لمفعول واحد، وفي محل نصب مفعول به ثان إن كانت متعدية لمفعولين. ولم تدخل هذه الآيةُ في هذا البحث .

وسُئِلتُ في مناسبات عدة عن سبب حذف حرف الجر (مِن) الواقع قبل الظرف (تحت) في قوله تعالى:﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)﴾ [التوبة].

والجواب: أنَّ حرف الجر عندما يجُرُّ الظرف يكون يفيد معنى التوكيد لكن الفعل (أَعَدَّ) الذي ورد في الآية أغنى عن حرف الجر (مِن)في إفادة توكيد جريان الأنهار تَحتَهم في الجنة من مكان قريب وليس من مكان بعيد (٣٩) ؛ لأنّه قد يظنُّ أهلها أنَّ المياه تجري تحتهم ولكنَّ المنبع بعيد وقد ينقطع عنهم الماء أو يجف أو يُغيِّرُ مجراه فيحرم المؤمنون منه في فترات لاحقة من الزمن كما هو الحال في الدنيا لكن ما يزيل هذه الظنون والشكوك والمخاوف وجودُ حرف الجر (مِن) الجار للظرف (تحت) الذي لا يتصرف إلَّا معه و إلَّا يلازم الفتح على النصب في كل أحواله و حرف الجر (مِن) مع الظرف لا يفيد إلَّا معنى التوكيد ؛ لهذا عندما حذف (مِن) عوض عنه بالفعل (أَعَدَّ) الذي هو أكثر توكيدًا من الحرف (مِن) في الكلام لاسيّما أنَّ فاعله هو الله تعالى . وهذا يدل على أنَّ إعداد الجنَّات كان إعدادًا إلهيًّا يناسب ذكر أصحاب الجنة وهم ﴿السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ .

فبذلك بان سبب الحذف في هذه الآية. وقد ذكر البيضاوي أنَّه{ قرأ ابن كثير «من تحتها الأنهار» كما في سائر المواضع. خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.}(٤٠) ،وهذا ما أكده أبو بكر بن مجاهد البغدادي بقوله:{ كلهم قَرَأَ عِنْد رَأس الْمِائَة [تجْرِي تحتهَا الْأَنْهَار] غير ابْن كثير وَأهل مَكَّة فَإِنَّهُم قرأوا [تجْرِي من تحتهَا] بِزِيَادَة [من] وَكَذَلِكَ هي في مصاحف أهل مَكَّة خَاصَّة}(٤١)وعلى ضوء قراءة ابن كثير يكون وجود (مِن) ضمن سياق تركيب الجملة[تجْرِي من تَحتِها الأنهار]زيادة في توكيد الكلام نظرًا لما يتطلبه المقام.

لكن الدكتور فاضل صالح السامرائي له رأي آخر في المسألة فقد علل حذف [من] في هذه الآية بقوله:{ أما لماذا قال في آية واحدة فقط (تجري تحتها) ؟ كل آية فيها (تجري من تحتها الأنهار) معهم الأنبياء، المؤمنين والمؤمنات معهم أنبياء. أما في آية سورة التوبة فليس معهم أنبياء (وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ) ليس معهم نبيّ. كل الآيات الأخرى على الإطلاق معهم الأنبياء وهذه ليس معهم الأنبياء. تجري من تحتها أي منبع الأنهار من تحتها. }(٤٢). أمَّا الرد على قوله: [أما في آية سورة التوبة فليس معهم أنبياء] أفلم يكن النبيُّ محمد (صلى الله تعالى عليه وآله وسلم)، سيد الأنبياء والمرسلين وإمامهم وقائدهم هو أوَّلَ المهاجرين من مكة إلى المدينة المنورة . ومن يستطيع القول إنَّ النبيَّ محمدًا (صلى الله تعالى عليه وآله وسلم) ليس من السابقين الأولين من المهاجرين ؟!

ومن يدعي ذلك فهو لا يملك دليلًا واحدًا نقليًا أو عقليًا على صحة ما يقول. أما القول بحذف [من] من الكلام فلدينا دليلان على وجود التوكيد فيه ،وهما: وجود الفعل [أعد] الذي عوض عن حذف [من]، وقراءة { ابْن كثير وَأهل مَكَّة فَإِنَّهُم قرأوا [تجْرِي من تحتهَا] بِزِيَادَة [من] وَكَذَلِكَ هي في مصاحف أهل مَكَّة خَاصَّة }–والله تعالى أعلم بالصواب.

إنَّ الله سبحانه أكَّد على مسألة جريان الماء من تحت أصحاب الجنة ،ومن تحت أشجار الجنة لِمَا في هذا المشهد العظيم من متعة وجمال ولذة للنفس والعقل والنظر عند الإنسان ؛ لذلك أولَاها بديع الخلق الخلَّاق العليم العظيم عناية فائقة وقد ذكرها سبحانه في أربعين آية من كتابه العزيز. لكن هناك جانبًا مهمًا من المسألة بقي لديَّ غامضًا أَلَا وهو كيفية الجريان هل هو – جريان الماء– من تحت أشجار الجنة ،ومن تحت أقدام أصحاب الجنة حقيقة أي :هل يكون جريان مياه أنهار الجنة فوق أرضها المنبسطة التي حصباؤها اللُّؤلُؤُ والمرجان والياقوت يجلوه الماءُ المُتَكسِّر فوقه فيزيدَه بهاء وجمالًا (٤٣)وهو يجري من غير أخاديد أو من تحت أرضها فتكون المياه مستورة وهنا لا تتحقق المتعة المرجوة من وراء هذا المشهد ؟

قد وجدت أنَّ للمفسرين وأصحاب البيان آراءً عديدة الكثير منها متقارب والقليل منها متباين،فكان الكثير من المفسرين يذهب إلى أن الجنة التي أعدها الله تعالى لعباده الصالحين ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ من غير أخاديد (٤٤)، أي : تنساب المياه متدفقة بهدوء على سطح أرض الجنة المنبسطة التي تربتها من الزعفران وبساتينها ذات الأشجار الملتفة التي أصبح ظلها ضافيًا وماؤها صافيًا منسابًا على وجه أرضها التي حصباؤها الدر والياقوت والمرجان واللؤلؤ وأنت تسمع صوت خرير الماء المتدفق وهو يتكسر على تلك اليواقيت،واللآلئ،والدُّرَر. وهذا الرأي ذهب إليه ابن أبي حاتم (٤٥) ، والسَّمرقندي (٤٦) ، والقرطبي (٤٧)،وأبو حيّان (٤٨)،والنيسابوري(٤٩) ،وأبو الثناء الآلوسي(٥٠) ،وغيرهم كثير بل يكاد يكون هذا الرأي هو ما عليه إجماع المفسرين واللغويين من أهل البلاغة والبيان –والله تعالى أعلم بالصواب.

وأما أغصان أشجار الجنة التي تحمل الأثمار فهي دانية عليهم ذليلة مطيعة بين يدي أصحاب الجنة يقطفها متى شاء فتخرج مكانها في الحال ثمرة جديدة ناضجة تعجب من يراها ،فيرجع الغصن بعد ذلك إلى حاله﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) ﴾ [الإنسان] و{ عن مسروق، قال: نخل الجنة نَضيدٌ من أصْلها إلى فرعها، وثمرها أمثالُ القِلال، كلما نُزعت ثمرة عادتْ مكانها أخرى، وماؤها يَجري في غير أخدود } (٥١)، بل تجد أن المؤمن لا يشعر في الجنة بحر الصيف ،ولا ببرد الشتاء بل يتنعم بربيع الجنة الدائم﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) ﴾ [الإنسان] .اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل .

والأنهار: جمع نهر،وسمّي نهرًا لسعته وضيائه ومنه النهار ،وهو أقلُّ من البحر وأكبر من الجدول. وفي الحقيقة الأنهار لا تجري بل المياه هي التي تجري ،والنهر هو مكان جري المياه لكن من باب المجاز والسعة في اللغة يقال إنَّ الأنهار تجري وإسناد الجري إلى الأنهار هو من الإسناد المجازي،ومثلها قوله تعالى:﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾يوسف–أي:واسأل أهل المدينة ،و العِير– الإبل أو الحمير التي يحمل عليها– ويراد أهلها أيضًا.

المبحث السادس :[التوكيد والحذف لا يكونان إلَّا لمعنى يقتضيه النص القرآني]

قال الله تعالى :﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(٥٤) ﴾[البقرة].

ما يلفت النظر في هذه الآية ويثير الانتباه ويدعو إلى التأمل أنَّ الله تبارك وتعالى قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ ﴾ ولو قيل {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ} لصحَّ القول لورود مثله في القرآن الكريم ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[البقرة] . لدينا سؤالان عن هذه المسألة:

السؤال الأول : ما السبب في توكيد الكلام بمثل هذا الأسلوب من الخطاب ؟

والسؤال الثاني: لِمَ حُذِفَت ياء المتكلم –التي هي ضمير متصل في محل جر بالإضافة– من الاسم المضاف (يا قومِ) وعوِّض عنه بالكسر ؟

أَمَّا جواب السؤال الأول : هو أنَّ هذه العبارة من قوله تعالى :﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ﴾ قد تكررت في ثلاثة مواضع من كتاب الله سبحانه وهي:

الأول:من سورة البقرة﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيم(٥٤)﴾[البقرة].

ففي هذه العبارة {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ } توكيد إذ أكد جملة القول {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ } بأسلوب النداء { يَا قَوْمِ } وجاء هذا التوكيد يناسب قوة الخطاب الموجه إلى قومه وقد تضمن طلب عظيم لقبول التوبة من ربِّهم لما اقترفوه من ذنب عظيم باتخاذهم العجل إلهًا يعبدونه من دون الله سبحانه و هذه كبيرة لا تغفر يوم القيامة ويغفر ما دونها لمن يشاء ؛لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النساء] . فطلب الله تعالى منهم قتل أنفسهم وهذا حد الردة عن دين الله سبحانه ؛ذلك { بأن توبتهم لا تقبل إلا بالقتل، وليس القتل هنا تفسيرا للتوبة، لأن التوبة عبارة عن الندم على الفعل والعزم على عدم العودة عليه، ولكن الله تعالى أوحى إن(٥٢) موسى عليه السلام أن توبة المرتد قتله، ولذلك قضى عليهم بالقتل، ولما وقع في قلوبهم ما هددهم به موسى من الخلود بالنار في الآخرة وتيقنوا أن قوله حق لما عرفوا منه، وأنهم لا بد ميتون، اختاروا قتل أنفسهم حذرا من عذاب الله}(٥٣) وكان ثمن التوبة باهظ ،وله أثر على النفس عظيم كيف لا وقد أمر الله تعالى بني إسرائيل على لسان موسى –عليه السلام– أن يقتلوا أنفسهم وذلك أن يقتلَ الذي لم يعبدِ العجلَ مَن عبدَ العجل فكان الرجل منهم يقتل أخاه أو أباه أو زوجَهُ أو ابنه أو قريبه أو صديقه الحميم وكان يجلس أحدهم عند باب داره محتبيًا يضع رأسه بين رجليه لا يحرك يدًا ،ولا رجلًا ،ولا يرفع طرفه بوجه قاتله كي لا يشفق عليه عند القتل طاعة لله ورسوله ؛ فقُتِلَ منهم خلقٌ عظيمٌ {فَلَمَّا كَثُرَ الْقَتْلُ دَعَا مُوسَى وَهَارُونُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَبَكَيَا وَتَضَرَّعَا وَقَالَا يَا رَبُّ هَلَكَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، الْبَقِيَّةَ الْبَقِيَّةَ، فَكَشَفَ اللَّهُ تَعَالَى السَّحَابَةَ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَكُفُّوا عَنِ الْقَتْلِ فَتَكَشَّفَتْ عَنْ أُلُوفٍ مِنَ الْقَتْلَى، يُرْوَى عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ عَدَدُ الْقَتْلَى سَبْعِينَ أَلْفًا فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى مُوسَى فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ: أَمَا يُرْضِيكَ أَنْ أُدْخِلَ الْقَاتِلَ والمقتول [منهم] الْجَنَّةَ؟ فَكَانَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ شَهِيدًا، وَمَنْ بَقِيَ مُكَفَّرًا عَنْهُ ذُنُوبُهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: فَتَابَ عَلَيْكُمْ، أَيْ: فَفَعَلْتُمْ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَتَجَاوَزَ عَنْكُمْ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ: القابل للتوبة [منكم] الرَّحِيمُ بكم}(٥٤) .أمَا ترى أنَّ قوة التوكيد ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ ﴾ تناسب شدة الحدث ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ .

الثاني: من سورة المائدة ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٠ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾

وتجد في هذه الآية أنَّ التوكيد ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ﴾ يناسب المعاني التي جاءت فيها إذ ذَكَّرهم اللهُ عز وجل بنعمه العظيمة التي لا تعد ولا تحصى ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾وحذَّرهم من

الردة في الدين والشرك بالله سبحانه فإنَّ ذلك سبب هلاك آبائكم من قبلُ إذ قال لهم : ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ فجاء التوكيد بالنداء تحذيرًا من الهلاك والخسران في الدنيا والآخرة.

الثالث: من سورة الصف:﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾

وفي هذه الآية جاء التوكيد بقوله تعالى :﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ ﴾ يوازي الذنب العظيم الذي ارتكبوه وهو إيذاؤُهم رسول الله موسى – عليه السلام– ﴿لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ وكان قومُه بنو إسرائيل يؤذونه بأنواع الأذى كالسخرية منه والاستهزاء به وَذَلِكَ حِينَ رَمَوْهُ بِالْأُدْرَةِ (٥٥)،وشتمهم له ،وتكذيبهم بما جاء به من المعجزات والآيات والتوراة التي حرفوها، وعصَوُا الله تعالى ورسوله –عليه السلام– بعبادتهم البقر ،وقولهم له أرنا الله جهرة، واتهامهم له بقتل أخيه هارون –عليه السلام– (٥٦)كل ذلك فعلوه بحقه وهو يقول لهم:﴿ وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾و(قد) لا تفيد التقليل ولا التحقيق هنا بل أفادت معنى التوكيد وهي جملة حالية مؤكدة لإنكار الأذى؛ لأنَّه لا يوجد أدنى مسوغ لهذا الإيذاء فأراد أن يقول لهم : إنَّكم تُصِرُّون على إيذائي وأنتم تعلمون علم اليقين أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ، بل علمكم هذا يوجب عليكم تعظيمي وتوقيري ،واحترامكم لي بدلًا من القذف والسخرية والمعصية والشرك بالله تعالى؛ لأنَّ هذا الزيغ والخروج عن سبيل الله وصراطه المستقيم سيجلب عليكم سخط الله وغضبه﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾الفعل [زَاغ – يَزِيغ] لازم مجرد من الباب الثاني أمَّا الفعل [أزاغ–يُزِيغ] فهو مزيد بهمزة التعدية والزيادة في المبنى زيادة في المعنى ؛ لذلك يكون المعنى {فَلَمَّا زَاغُوا}أي:مالوا عن الحق و خرجوا عن طاعة الله ورسوله ومنهج التوحيد ؛فأضلَّ أعمالهم وأعمى بصيرتهم؛ لأنَّهم ارتكبوا المعصية بمحض إرادتهم لكن جزاء المعصية وعقوبتها كانت بإرادة الله تعالى لا بإرادتهم{ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}أي:صرف اللهُ عزَّ وجل قلوبهم عن الحق والإيمان فهي لا تفقه حديثًا، ولا تتفكر، ولا تتدبَّر في آلآء الله سبحانه، ولا تصغِ لمنطق العقل وحين ذلك مَنَعَهُمُ الله ألطافه الكثيرة؛ لأنَّهم ليسوا مِن أهل اللطف والخير. وهذا المنع والصرف تمَّ بإرادة الله عزَّ وجل؛لأنَّه تعالى ﴿ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾فهذه القلوب لا تؤمن حتى ترى العذاب الأليم ،وعندها لا تنفع التوبة ولا الحسرة ولا الندامة﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المائدة: ٢٦] . ومن كل ما تقدم يمكننا القول إن التوكيد الذي ورد في الآية بالنداء وجملة الحال المؤكدة يناسب تحذير النبي موسى–عليه السلام– لقومه–بني إسرائيل– من التمادي في الإيذاء والزيغ عن سبيل الحق والردة عن دين الله سبحانه والكفر به .

والسؤال الثاني وهو الأهم: لِمَ حُذِفَت ياء المتكلم –التي هي ضمير متصل في محل جر بالإضافة– من الاسم المضاف (يا قوم) وعوِّض عنه بالكسر ؟

الجواب: أنَّ الإضافة –إضافة (قوم) إلى الضمير ياء المتكلم العائد على موسى (عليه السلام)– هنا تعني الشفقة والرحمة والمودة ؛لأنَّهم أهلُه وأبناء عمومته وأبناء جلدته .

لكن ماعلة حذف الياء وإبقاء الكسرة التي تدلُّ عليه وهي في الواقع حركة مجانسة لما بعد الحرف؟

علل علماء النحو في العربية حذف الياء–ومنهم الزجاج(ت ٣١١هـ)– بأنَّه {يجوز في الكلام أربعة أوجه. فأمَّا في القرآن فالكسر وحذف الياءِ لأنه أجوَد الأوْجُهِ.وهو إجماع القراءِ، فالذي يجوز في الكلام أن تقول " يَا قَوْمِ إنكم "كما قرئ في القرآن،}(٥٧)،وأمَّا أبو جعفر النحاس (ت٣٣٨هـ) فذكر أنه يجوز في الكلام ستة أوجه:{ وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ حذفت الياء لأن النداء موضع حذف والكسرة تدلّ عليها وهي بمنزلة التنوين فحذفتها كما تحذف التنوين من المفرد، ويجوز في غير القرآن إثباتها ساكنة فتقول: «يا قومي» لأنها اسم وهي في موضع خفض، وإن شئت فتحتها، وإن شئت ألحقت معها هاء فقلت: يا قوميه. وإن شئت أبدلت منها ألفا لأنها أخفّ فقلت: يا قوما، وإن شئت قلت: يا قوم بمعنى يا أيّها القوم،}(٥٨) وهذا ما ذهب إليه السمرقندي(ت٣٧٣هـ) بقوله :{ وأصله يا قومي بالياء ولكن حذف الياء وترك الكسر بدلاً عن الياء، وتكون في الإضافة إلى نفسه معنى الشفقة.}(٥٩) لكنَّ سياق النص القرآني بما يتضمنه من معاني يفرض بشدة الحذف ولا يوجد لدينا خيار آخر كما زعم بعض المفسرين والنحويين ،وليست الحجة القوية للحذف ما قاله النحاس: { حذفت الياء لأن النداء موضع حذف والكسرة تدلّ عليها وهي بمنزلة التنوين فحذفتها كما تحذف التنوين من المفرد } بل أرى أنَّ الصواب – من الآراء النحوية – ما ذهب إليه الزجاج إذ قال: {فأمَّا في القرآن فالكسر وحذف الياءِ لأنه أجوَد الأوْجُهِ.وهو إجماع القراءِ} ؛لأنَّ الحذف جاء موافقًا للمعنى وبما أنَّ الإضافة –إضافة (قوم) إلى الضمير ياء المتكلم العائد على موسى (عليه السلام)– هنا تعني الشفقة والرحمة والمودة لوجود صلة الدم بينه وبينهم لكنَّ حذْفَه ياء المتكلم أثناء خطابه لهم بعد ارتكابهم المعصية –عبادة العجل وترك عبادة الله سبحانه – تعني أنَّهم أصبحوا أعداء لله سبحانه ولرسوله –عليه السلام– وقد خرجوا من ملّته – ملة الإيمان– فرُفِعَت الشفقة من قلبه عليهم ؛ لهذا طلب منهم قتل أنفسهم ،بأمر ربِّه، فالألم والحزن والأسى سيصيب القاتل والمقتول ؛ لأنَّهم أهل وإخوة وأقارب فكان وقع ذلك الأمر عظيمًا على نفوس القوم جميعًا بما فيهم موسى وهارون –عليهما السلام–فَلَمَّا كَثُرَ الْقَتْلُ دَعَا مُوسَى وَهَارُونُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَبَكَيَا وَتَضَرَّعَا وَقَالَا يَا رَبُّ هَلَكَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، الْبَقِيَّةَ الْبَقِيَّةَ، فَكَشَفَ اللَّهُ تَعَالَى السَّحَابَةَ التي أظلتهم ؛لتسترهم فلا يعرف القاتل من قتل كي لا تأخذه رأفة به . وَأَمَرَهُمْ موسى –عليه السلام– أَنْ يَكُفُّوا عَنِ الْقَتْلِ فَتَكَشَّفَتْ عَنْ أُلُوفٍ مِنَ الْقَتْلَى . فالتوبة كانت أن يقتل من لم يعبد العجل الذين عبدوا العجل ،وجزاء القاتل والمقتول الجنة والغفران .وهذا هو معنى قوله تعالى :﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾؛ لأن القاتل أخو المقتول في الدين أو في الدين والنسب فكأنَّ القاتل يقتل نفسه عندما يقتل أخاه ،وهذا كما قال الله سبحانه : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾[الحجرات: ١١] أي : لا تعيبوا أخوانكم المسلمين بذكركم إياهم بسوء القول أو الفعل كأنكم تلمزوا أنفسكم بالسوء والمنكر . فكان حذف المضاف إليه – الضمير ياء المتكلم – من الكلام وإبقاء الاسم المضاف المنادى ليس ؛ لأن النداء موضع حذف فحسب بل كان لأمر يتعلق بمعنى سياق النص القرآني إذ جاء الحذف موافقًا لمعنى الإضافة وهي إضافة محضة تفيد تعريفًا أو تخصيصًا وهنا أفادت تعريفًا إذ عرفت اسم المنادى النكرة [قوم] الذي يعود على بني إسرائيل بإضافته إلى الضمير ياء المتكلم العائد على موسى (عليه السلام) . فمعنى الإضافة يدل على اعتزازه بقومه والمودة والرحمة لكن حذفها يعني رفع الشفقة والرحمة من قلب موسى (عليه السلام) على قومه الذين سخط الله تعالى عليهم فهذا يعني أنَّ حذف حرف من الكلام يقابله حذف معنى من النص فجاء الحذف موائمًا لبناء سياق النص القصصي في القرآن الكريم – والله تعالى أعلم .

المبحث السابع : [تقديم المفعول به على الفاعل]

قال الله تعالى :﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[البقرة]

لعل سائلًا يسأل لِمَ قُدِّمَ المفعول به على الفاعل ؟

الجواب : علل النحويون ذلك ؛لِئَلَّا يعود الضمير على متأخر لفظًا ورتبة،وهو ممتنع عند جمهور النحاة ولكن من النحويين من أجازه ومنهم ابْنُ جِنِّي الذي احْتَجَّ عَلَيْهِ بِالشِّعْرِ وَالْمَعْقُولِ، أَمَّا الشِّعْرُ فَقَوْلُ النابغة الذبياني:

جَزَى رَبُّهُ عَنِّي عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ ... جَزَاءَ الْكِلَابِ الْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلْ (٦٠)

وَأَمَّا الْمَعْقُولُ فَلِأَنَّ الْفَاعِلَ مُؤَثِّرٌ _ هو الذي يحدث الفعل ويقوم به _ وَالْمَفْعُولَ قَابِلٌ _الذي يقع عليه تأثير _ وَتَعَلُّقَ الْفِعْلِ بِهِمَا شَدِيدٌ؛لأنَّ الفعل والفاعل كالكلمة الواحدة والفعل أشد طلبًا للفاعل من المفعول وغيرها من أنواع الفضلة ،وعلى رأيه هذا يجوز أن يكون ترتيب الآية على هذا النحو :[وَإِذِ ابْتَلَى رَبُّهُ إِبْرَاهِيمَ بِكَلِمَاتٍ]–وعلى هذا كان تقدير معنى الآية– ولو قدر للآية أن تكون على هذا الترتيب لاختلف المعنى عمَّا يكون عليه وفق ترتيب السياق الذي نزلت به ولذهبت معانٍ كثيرةٌ منه سنذكرها لاحقًا. إنَّ ابتلاءَ اللهِ تعالى إبراهيمَ _عليه السلام_ لم يكن على وجه الحقيقة بل كان من باب المجاز ؛لأنَّ { اختبار الله عبده مجاز عن تمكينه من اختبار أحد الأمرين ما يريد الله تعالى وما يشتهيه العبد كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك }(٦١) . وقرأ أبو حنيفة رضي الله عنه ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾ [البقرة] برفع إبراهيم وهى قراءة ابن عباس رضي الله عنهما (٦٢) أي: دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه إليهن أم لا {فَأَتَمَّهُنَّ} أي:عَمِلَ بهنَّ على أتمِّ وجه وأفضل أداء وأحسن قيام مِن غير تفريط ولا تسويف لذا قال الله تعالى:﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) ﴾[النجم].

ومعنى الفعل [ابتلى] في قراءة ابن عباس –رضي الله تعالى عنه– أعطاه ما طلبه لم ينقص منه شيئاً والكلمات على هذا ما سأل إبراهيمُ ربَّه في قوله:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾[البقرة] ،و﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾[البقرة] وقوله : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾[البقرة]وقوله:﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾[البقرة] ونقل لنا الطبري أنَّه { حدثنا محمد بن المثنى قال، حدثنا عبد الأعلى قال، حدثنا داود، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله:"وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات" قال، قال ابن عباس: لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه إلا إبراهيم، ابتلاه الله بكلمات، فأتمهن. قال: فكتب الله له البراءة فقال: (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) [سورة النجم: ٣٧] . قال: عشر منها في"الأحزاب"، وعشر منها في"براءة"، وعشر منها في"المؤمنون" و"سأل سائل"، وقال: إن هذا الإسلام ثلاثون سهما.}(٦٣).

إنَّ تقديم المفعول(إبراهيمَ) على الفاعل (رَبُّه) كان لأغراض بيانية منها:

١– الْمَقْصُودُ تَشْرِيفُ النَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ (صلى الله تعالى عليه وآله وسلم) بِإِضَافَةِ اسْمِ الرَّبِّ سبحانه إِلَى اسْمِهِ ،وجاء الفاعل بلفظة (رب) ليذكره بنعمت الخلق والحياة والنشور والعافية والرزق والحفظ والنبوة والرسالة والذرية والإمامة . وهذه المعاني والدلالات ما كانت لتحصل لو كان ترتيب الآية وفق هذا السياق [إِذِ ابْتَلَى اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ] ،

٢–كان فعل الابتلاء– في الأصل الاختبار– مسندًا إلى الرَّبِّ سبحانه والمراد بهذا الفعل هنا التكليف. أو المعاملة معاملة الاختبارمجازًا، إذ حقيقة الاختبار محالة عليه تعالى– لكونه عالم السر والخفيات، وبما أنَّ المُبتلِي هو الرَّبُّ تعالى أراد أن يشعر المخاطبين والسامعين بأنَّه ابتلاه بما ابتلاه به كي يربِّيه ويعدَّه إعدادًا يوائم المهمات المكلف بها،ويقوِّي عزائمه لتحمل المصائب الصعاب التي لو قابلها الأسد لفرَّ منها، وحتى يُمَكِّنَه من النهوض بمسؤوليات جسام ويَقْوَى على القيام بعظائم الأمور التي تنوء بالجبال من شدة ثقلها وما سيكلف به من واجبات وأوامر ونواهٍ وأعباء الرسالة وتبليغها إلى الناس والدعوة إلى الله تعالى وتوحيده وغيرها من الواجبات التي تضمنتها الكلمات التامات التي اختلف المفسرون في مدلولاتها ومعانيها (٦٤) .

واختبارُ اللهِ تعالى الإنسان –المؤمن أو الكافر– {كأنه يمتحنه بما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك كما علم الكفر من إبليس ولم يلعنه بعلمه ما لم يختبره بما يستوجب اللعنة به}(٦٥). ولو كان الفاعل (إبراهيم)على قراءة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: [وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ] لاختل المعنى البياني لهذه الآية تمامًا عمَّا عليه الآن .

٣–وَقُدِّمَ المفعول (إبراهيم) عَلَى الْفَاعِلِ (ربُّهُ) للاهتمام والعناية، إذ كون الرب تبارك وتعالى مُبْتَلِيًا مَعْلُومًا، وَكَوْنُ الضَّمِيرِ الْمَفْعُولِ فِي الْعَرَبِيَّةِ مُتَّصِلًا بِالْفَاعِلِ مُوجِبَ تَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ، وكون (إبراهيمَ) المُبتَلَى الذي وقع عليه الابتلاء هو موضع العناية والاهتمام؛ لذا تجد أنَّ السامع والقارئ من المخاطبين يَهُمُّهم معرفة أخبار المبتلَى وما حصل له وما سيحصل ، فَإِنَّمَا بُنِيَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا الِاهْتِمَامِ(٦٦)، واعلم أنَّ {إبراهيم عليه السلام تعترف بفضله جميع الطوائف قديما، وحديثا فأما اليهود والنصارى فإنهم مقرّون بفضله ويتشرفون بالنسبة إليه وأنهم من أولاده وأما العرب في الجاهلية فإنهم أيضا يعترفون بفضله ويتشرفون على غيرهم به لأنهم من أولاده، ومن ساكني حرمه وخدام بيته، ولما جاء الإسلام زاده الله شرفا وفضلا فحكى الله تعالى عن إبراهيم أمورا توجب على المشركين والنصارى واليهود قبول قول محمد صلّى الله عليه وسلّم، والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه لأن ما أوجبه الله على إبراهيم عليه السلام هو من خصائص دين محمد صلّى الله عليه وسلّم وفي ذلك حجة على اليهود والنصارى ومشركي العرب في وجوب الانقياد لمحمد صلّى الله عليه وسلّم والإيمان به وتصديقه.}(٦٧) ٠

[الخاتمة]

وهذه أهم النتائج التي توصَّل إليها البحث :

١–استطعت أن أجيب عن أسئلة تشغل فكر قراء القرآن الكريم في مجال اللغة والبيان.

٢–بيان كمال لغة القرآن ردًّا على أعداء الله الذين يحاربون القرآن الكريم ويدَّعون أَنَّ القرآنَ ليس معصوماً من الأَخطاءِ.

٣– سعينا جاهدين لبيان قسم من مواطن الإعجاز اللغوي في هذا الجزء من القرآن المتمثلة بفنون التعبير القرآني وعلم المعاني كالإظهار أو الإضمار،والحذف أو الإثبات ،والتقديم أو التأخير ،والإيجاز أو الإطناب ،و التكرار ،والتوكيد أو النفي.

٤– تناولنا مسائل في بيان القرآن الكريم لم نسبق إليها من قبل –بحدود علمنا .

نسأل الله تعالى الإخلاص في العمل ،والسداد في القول ،وقبول الصالحات ،وحسن التوكل عليه،وأن يوفقنا لما فيه الخير والصلاح للعباد والبلاد إنَّه نعم المولى ونعم المجيب ٠

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النَّبيِّ المصطفى وآله وصحبه أجمعين ٠

[الهوامش]:

١ – ينظر: كتاب [هل القرآن معصوم ؟] للمؤلف :عبدالله الفادي .وإليك تعريف بهذا الكتاب [" هل القرآن معصوم؟ ". عنوانٌ مثير، لكتابٍ حول القرآن، ظهرتْ طبعَتُه الأُولى عام (١٩٩٤ م) ،وقد صَدَرَ بثلاثِ لغات: الأَلمانيةِ والإنجليزيةِ والعربية. وجاءَ في صفحةِ العنوانِ أَنَّ مؤلِّفَه هو " عبدُ الله الفادي "، وهو اسْمٌ مُسْتَعار، ويَبدو أَنه لم يُؤَلِّفْهُ رجلٌ واحد، وإنما أَعَدَّه مجموعةٌ من القساوسةِ والرهبان. وقد طُبِعَ فى النمسا، وصَدَرَ عن مؤسسةٍ تنصيرية، اسْمها: **Light of Life** ومعناه: " نور الحياة "!!. وعنوانُ الكتابِ مقصود، والاستفهامُ للإثارة، فمَعْنَى سؤالِهم: " هل القرآنُ معصوم؟ " تقرير أَنَّ القرآنَ ليس مُنَزَّهاً عن الخَطَأ، وإنما فيه عَشَراتُ الأَخطاءِ المختلفة، وهذا معْناهُ أَنه ليسَ من عندِ الله، فلو كانَ من عندِ الله لما وُجِدَ فيه خَطأٌ واحد!. وقد قَسَّمَ مؤلِّفو الكتابِ كِتابَهم إلى عشْرَةِ أَجزاء، ادَّعَوْا أَنهم وَجَدوا في كُلِّ جزءٍ منها مجموعةً من الأَخطاءِ في القرآن.]. ولم يكن بحثي ردا مباشرًا عليه بل كان ردًّا عامًّا على كل من يدعي النقص في القرآن الكريم ، لكن الله تعالى هيأ له من يرد عليه في مسائل اللغة –وهي خمس وعشرون مسألة–كأمثال الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي في كتابه: القرآن ونقض مطاعن الرهبان ، دار النشر: دار القلم – دمشق ، الطبعة الأولى: ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م ، عدد الأجزاء: ١ .

٢–سورة(ص)/ ٤٥–٤٩

٣– سورة(ص)/٥٢–٥٣

٤–سورة(ق)/١٩

٥–سورة الأنفال/١٤٥–إنِّي أظنُّ كان يقصد بقوله :{في قراءتنا} نفسه –الفراء (ت٢٠٧هـ)– ، أوشيخه الكسائي (ت ١٨٩هـ) لكنِّي بحثتُ في كتب التفسير ،وكتب القراءات فلم أجدها .

٦– معاني القرآن ، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (المتوفى: ٢٠٧هـ):١/١٠–١١.

٧–تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم:٣٢/١.

٨–تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)،لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: ٧١٠هـ)،:٠٣٨/١

٩–روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ):١٠٨/١–١٠٩.

١٠– التفسير الحديث [مرتب حسب ترتيب النزول]، لدروزة محمد عزت :١٢٩/٦.

١١–شرح السُنَّة للبغوي:٦٦/١٤ ،وينظر:صحيح مسلم (باب فضل الصحابة) :١٩٦٣/٤ ،و مسند الإمام أحمد بن حنبل ،لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ): ٣٢٢/٦ ،وجامع العلوم والحكم،لأبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبليج:٤٢٩٠١١/١ ،ومجمع الزوائد للهيثمي:٧٤٤/٩.

١٢–مسند أحمد:١٤٨/٤١،و تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، لجمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي المتوفى:(٧٦٢هـ):٧٥/٤.

١٣–سنن أبي داوود:١١١/٤.

١٤– التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي:٦١/١.

١٥– المشاكلة: تعني المناسبة ،والموائمة ،والتشابه في المعنى إما على سبيل الاتفاق ،أو التضاد، حسب ما توجبه قسمة الكلام ،أوهي:أن تذكر الشيء بلفظ غيره ؛لوقوعه في صحبته،ينظر: الموازنة للآمدي :٢٩٧/١،ومفتاح العلوم للسكاكي :٤٢٤/١.

١٦– الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي:١٠٥/٨،والسنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ):٠٤٨٢/٣

١٧–سورة الشورى/٤٠

١٨– التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي: ٦١/١–٦٢

١٩–أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ):١٣/١

٢٠–الأسماء والصفات للبيهقي:٤٣٥/٢، وينظر:تفسير القرآن العزيز، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي (المتوفى: ٣٩٩هـ):١٢٣/١.

٢١- شرح العقيدة الطحاوية: ٦/٣.

٢٢-بحر العلوم السمرفندي:٢٦/١-٢٧.

٢٣- وصحيح البخاري:٢/١ والمسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ):١٢١٩/٢،

٢٤- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ):٣٣٦/٢٠،و تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم:٢١٥٩/١٠.

٢٥-سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ):١١٦/١، وينظر:مجمع الزوائد:٢٠٤/١ ،والجامع الكبير للسيوطي:١٢١٨٩/١.

٢٦- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي:٠٣٧٣/١

٢٧-ديوان حسان بن ثابت:٢٣/١

٢٨- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي:٧٥/١.

٢٩- سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي:٢٥٠/١

٣٠- السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي :٠٣٦٦/٣

٣١- تعظيم قدر الصلاة، أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي (المتوفى: ٢٩٤هـ):٢١٨/١.

٣٢-وهي:الأنعام/٦،والأعراف/٤٣،ويونس/٩ ،والكهف/٣١.

٣٣-إعراب القرآن وبيانه ،محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى : ١٤٠٣هـ):١٣٠/٥.

٣٤- المصدر السابق .

٣٥- المصدر السابق:٠٢٩٤/٥

٣٦-إعراب القرآن الكريم للدعاس:٠٢١٧/٢

٣٧-ينظر: تفسير النسفي :٥٦٨/١-٩ ٥٦ ، والدر المصون في علم الكتاب المكنون :٣٢٣/٥ ، وإعراب القرآن وبيانه ، المؤلف : محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش:٣٥٥/٣، وإعراب القرآن الكريم للدعاس:٠٣٦٢/١

٣٨- إعراب القرآن وبيانه ، المؤلف : محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش:٠٢١١/٤

٣٩- أنوار التنزيل وأسرار التأويل:٠٩٥/٣

٤٠-كتاب السبعة في القراءات ، أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد البغدادي (المتوفى: ٣٢٤هـ):٠٣١٧/١

٤١-ينظر: تفسير الشعراوي – الخواطر ،المؤلف: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ):٠٢٠٨/١

٤٢- لمسات بيانية:٢٠٥.

٤٣- البحر المحيط في التفسير ، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ):٦/٢٩٩.

٤٤- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ) :٧/٢٨.

٤٥-تفسير ابن أبي حاتم :١/٦٦.

٤٦- بحر العلوم :١/٣٦

٤٧- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي:١/٢٣٩.

٤٨- البحر المحيط في التفسير:١/١٧٧.

٤٩-غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (المتوفى: ٨٥٠هـ):١/١٩٩.

٥٠- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني:١/٢٠٤-٢٠٥.

٥١-- جامع البيان في تأويل القرآن:١/٣٨٤.

٥٢-أظن أنّ في العبارة { أوحى إن موسى عليه السلام }تصحيف والصحيح:{أوحى إلى موسى عليه السلام أن توبة المرتد قتله }.

٥٣-بيان المعاني [مرتب حسب ترتيب النزول] ، عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني (المتوفى: ١٣٩٨هـ):٥/٤٣.

٥٤- معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي ، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ):١/٩٦.

٥٥-{[أدر] الأُدْرَةُ: نفَخةٌ في الخصية. يقال: رجل آدَرُ بيِّن الأُدْرَةِ.} الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية:٢/٥٧٧.

٥٦- بحر العلوم للسمرقندي :٣/٤٤٣.

٥٧- معاني القرآن وإعرابه ، المؤلف: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ):١/١٣٥.

٥٨- إعراب القرآن للنحاس :١/٥٤.

٥٩- بحر العلوم : ١/٥٣.

٦٠-ديوان النابغة الذبياني:١/١١٤

٦١- تفسير النسفي:١/١٢٦-١٢٧

٦٢- بحثت في كتب القراءات الآتية:[كتاب السبعة في القراءات ،المؤلف،والحجة في القراءات السبع،المؤلف: الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله (المتوفى: ٣٧٠هـ)،وحجة القراءات، عبد الرحمن بن محمد، أبو زرعة ابن زنجلة (المتوفى: حوالي ٤٠٣هـ)،وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطيّ، شهاب الدين الشهير بالبناء (المتوفى: ١١١٧هـ)، وغيرها من كتب القراءات وعلوم القرآن الكريم] فلم أجد لهذه القراءة أثرًا فيها إلَّا إنَّ قسمًا من كتب التفسير ذكرت ذلك منها:[تفسير القرطبي:٢/٩٧و تفسير النسفي:١/١٢٦والبحر المحيط:١/٦٠٠].

٦٣- تفسير الطبري:٢/٨

٦٤- مفاتيح الغيب: ٤ /٣٣-٣٤،و تفسير النسفي:١/١٢٦-١٢٧ ،و لباب التأويل :١/٧٦ ،و روح البيان:١/٢٢١ ،و روح المعاني:١/٣٧٢ ،و التفسير الوسيط:١/٢٠٢

٦٥- روح البيان:١/٢٢١.

٦٦-مفاتيح الغيب: ٤ /٣٣-٣٤ و روح المعاني:١/٣٧٢

٦٧-لباب التأويل :١/٧٦ وينظر: مفاتيح الغيب: ٤ /٣٣-٣٤ ،و روح المعاني:١/٣٧٢.

Absract

The subject of the research is Anwar Al-bayan in the first part of -is a react against .Quran –Researcher: Taleb Kamess AL Wady - the Christian linguist Abdullah Al-fadi in his book: (Is Quraan without falts). The research shows that Quraan was set according to a grammatical system , no one can set but Allah as in the speech : Thanks for Allah who sent the book on his worshipper without zigzag , valuable to warn strong stress from him and to tell the believers who work goodness that they will have good reward . the research also answered many questions that the readers may think of . in addition the researcher adds other important points to it .prayings may be upon prophet .Mohammad and his followers